اختلاف الاتجاهات الأدبية وآفاق المستقبل العربي

بقلم الدكتور
الحبيب الجنحاني

نذكر ، بادىء ذي بدء ، أن الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة ليست محددة وليست مدروسة حسب رؤية حضارية هادفة ، ونظرة كونية شمولية لماضي الوطن العربي القريب ولحاضرة ، المهزوم المأزوم، ولآفاق مستقبله الغامض .

هناك دراسات متفرقة صدرت هنا وهناك حول نوع معين من انواع الانتاج الادبي ، وبينها محاولات قيمة جريئة القت اضواء كاشفة عن الشعر الحديث في السودان مثلا ، او عن الرواية المصرية ، او القصة القصيرة العراقية ، او القصة المعاصرة في سوريا ، او عن المسرح العربي مع التركيز على بلد معين حسبما تصل اليه يد الدارس من مصادر ومعلومات ، ولكن هذه الدراسات ذات الصبغة الاقليمية تشكو انعدام النظرة الشمولية ، فهي تكاد تكون شذرات متفرقات جمعت دون منهج متسق او رؤية شاملة .

ونلمس ـ الى جانب ذلك ـ تأثر هذه الاتجاهات في العالم العربي :

اولا : بما نتج عن التطور التقني المعاصر ، وما يوفره من وسائل الاتصال العالمي في ميادين النشر والدعاية ، واستعمال وسائل الاتصال الجماهيري من ذيوع شتى الاتجاهات الفكرية والمدارس الادبية والعقائدية ، هذه الاتجاهات التي نستطيع حصرها بين تيارين رئيسيين على صعيد الفكر العالمي :

ـ تيار الثقافة الانسانية المؤمنة بالتطور البشري الذائدة عن تراث الشعوب وحقوقها في الحرية والعدالة الاجتماعية يغذو أنصاره النزعات الانسانية بمزيد من روح التفاهم والتسامح ، ويفضحون ضروب استغلال الانسان ، ومظاهر السلبية والتحطيم في سياسة النظم الامبريالية .

ـ وتيار الفكر البورجوازي البراق في مظهره ، والجذاب في اخراجه ، ولكنه مناهض للروح الانسانية ، محتقر لجوهر الانسان ، جاعلا منه دمية مسخرة لخدمة الفئات الارستقراطية .

ثانيا : بالاتجاهات العقائدية المختلفة في الوطن العربي نفسه ، فهي أصدق مرآة لتلك التيارات الايديولوجية التي تقسم الادباء العرب والنخبة المثقفة العربية عامة ، مرآة تنعكس عليها في نفس الوقت تناقضات الواقع العربي ، فالموقف الادبي جزء من الموقف العام للمجتمع ، ولا يختلف اثنان في ان المجتمع العربي يعاني أزمة حادة نلمس آثارها في شتى ميادين حياتنا ، ومنها الميدان الادبي ، فلا غرو ـ اذن ـ ان نجد التناقضات التي تمزق العالم العربي ، وما تفرزه هذه التناقضات من مشاعر الخوف في مواجهة الواقع الاليم تدفع ببعض الادباء والمفكرين الى الارتماء في أحضان الانتهازية ، والركض في مقدمة ركب ذوي السلطان المطلق القهري ، وبالبعض الآخر الى مفاجأة القراء بانتاج تهب منه روح التشاؤم المسلوب الامل ، او النرجسية الذميمة ، ونجد فئة ثالثة تلوذ بالصمت أضعف الايمان، فتتمركز على ذاتها وتتقوقع داخلها ولا تخال هذه الذاتية الا فرارا من مرارة الواقع العربي .

اذا كانت الاتجاهات الادبية مختلفة ، متباينة تتلون بفرقتنا الايديولوجية غالبا ، نرجسية غامضة في بعض الاحايين ، فان آفاق المستقبل العربي تغشيها بدورها غيوم كثيفة ليس قوميا ، وانسانيا فحسب ، بل وطنيا أيضا ، فلا ننتظر ـ اذن ـ ان تكون رسالة الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة بيّنة جلية في خدمتها لهذا المستقبل .

انه من الاوليات المعلومة آن نشير هنا الى ان المستقبل مرتبط بالحاضر ، فكيف يمكن ان تكون رؤيتنا واضحة ، متناسقة للمستقبل، ورؤيتنا لحاضرنا المشاهد مفترقة متشعبة غامضة .

ان ارتباط الاتجاهات الادبية بالمستقبل العربي متين الصلة بحاضرنا وقضاياه .

ان التناقضات العميقة التي يعانيها الوطن العربي منذ سنوات أدت الى بروز ظاهرة جديدة في حياتنا الثقافية ، ظاهرة الادب المتأزم والفكر المتأزم ، فقد يرى البعض في هذا سوداوية مسرفة ، ولكنني في الحقيقة أبعد ما أكون عن السوداوية أو التشاؤم وانما أنظر الى ظاهرة تأزم الفكر العربي نظرة واقعية دون ان افقد الامل ، او ينقطع عني نفس النضال . ان أمر أولئك الذين يريدون ان ينظروا الى الحركة الادبية والفكرية عامة بعين الاعجاب والرضا الغريب ، فلماذا يريدون ان ينفرد الادب بالبعد عن التأزم ، والعالم العربي في شتى مظاهره يشكو الركود ، وعلائم أزمة حادة . أليس من المنطق والبداهة أن يمس أدبنا رذاذ من هذه الازمة ، ولا سيما اذا طالبناه ان يكون ابن بيئته ؟

ان أسباب هذا التأزم معقدة ، متشعبة ، مرتبطة وثيق الارتباط بأزمة الاوضاع في اكثر البلدان العربية ، فالتحول العميق وتطور الاحداث السريع منذ الخمسينات جعلا العالم العربي يواجه سؤالا مطروحا عليه بشكل حاد وحتمي ، سؤال معركة المصير ، والمنعرج الذي سيسلكه ، سؤال وضع الانسان العربي المعاصر ، العامل ، والفلاح ، والمفكر ، والسياسي بين الوجود واللاوجود . فقد عاش هذا العالم هزيمتين ، هزيمة ١٩٤٨ ، وهزيمة ١٩٦٧ ، سلطتا أضواء كاشفة على نقاط الضعف الحضاري للامة العربية ، فقد بلورت الهزيمة الاولى نظرية القومية العربية ، وقد رفعت أولا شعار استكمال مظاهر السيادة ، والحرية السياسية ، ثم شعار العدالة الاجتماعية ثانيا ، فأجهضت الحرية السياسية في كثير من البلدان ، وبقيت العدالة الاجتماعية شعارا فقد سحره لدى الجماهير التي طال انتظارها ، وجاءت الهزيمة الثانية لتجعل القومية العربية تواجه قضية مصيرية خطيرة ، وأزمة اختيار حاسم ونهائي :

ـ اما الوحدة ، ولتكن مرحلية ، باعتبارها الطريق الوحيد مع الوعي الكامل بمشاكلها المعقدة ، وتناقضاتها الداخلية العميقة على اساس حلها داخل الوحدة ، وليس قبلها ، لان قبلها لن تحل ، فالتطبيق هو السبيل الناجع لايجاد الحلول . ونلح على أهمية الوعي الكامل بذلك حتى لا تقع نكسة ، او خيبة أمل لدى حماتها : الجماهير العربية .

ـ او الانكماش والانهزامية بحجة اختلاف الاوضاع ، وافتراق المصالح ، ولكن مصالح من ، مصالح الفئات الحاكمة ، ام مصالح الطبقات الكادحة ؟ وفي هذه الحال تجمد القضية أجيالا ، وتعجز

الامة العربية عن مواجهة التحديات ، فتستسلم .

ان السؤال ـ اذن ـ ما يزال مطروحا ، سؤال الوجود ، أو اللاوجود ، وان يترقب الاجابة طويلا .

وهذا السؤال نفسه هو الذي جعل موضوع رسالة الادب ، ودور المثقف في خدمة المستقبل العربي ، والمساهمة في حل المشكل المطروح حلا موضوعيا ، منسجما مع الرؤية الحضارية ، والتطور التاريخي يخدم مصالح الجماهير الشعبية يطرح نفسه علينا من جديد بشكل حاد وحتمي وبأسلوب أخطر مما طرح به في مرحلة التحرر الوطني .

ان الادب قام بدور فعال في مرحلة التحرر الوطني ، وتجاوب مع نظرية القومية العربية ، وتحمس في كثير من جوانبه ، ورغم اختلاف الاتجاهات لقضية الوحدة ، ولكن جذوة الحماس بدأت تخمد لدى الكثيرين ، وأصبحوا يلوذون بالانتاج السريع الغامض الاهداف ، أو بالصمت ، ان بقوا مخلصين لمبادئهم ، والاديب العربي في هذا متفاعل مع الواقع ، عن وعي او عن غير وعي ، فقد بقي السؤال منذ الهزيمة الثانية مطروحا على الامة العربية بدون جواب ، بل لمس ترددا كبيرا ، ان لم نقل رفضا ، للسير في ذلك الطريق الوحيد ، وهكذا تكثفت السحب في سمائنا ، وتازم الوضع ، فانعكس ذلك على الادب، والاديب ، ولا سيما وهو في كل هذا تابع لا متبوع ، فقد شعر في السنوات الاخيرة بالهوة السحيقة التي تفصله في جل الاقطار العربية عن النظم القائمة ، وبدوره الطفيلي الهامشي في تحديد الاختيارات المصيرية وطنيا وقوميا ، فبعد أن نضج الاحساس الوطني والاجتماعي بين الخمسينات والستينات بصورة عنيفة بدأ المثقف يبحث لنفسه عن دور يؤديه في غمار تلك الحركة الشاملة ، ولما شعرت الجماهير بعد ذلك بأهمية العدالة الاجتماعية الى جانب الاستقلال الوطني ، والنظرية القومية التي أرادت أن تعوض اجهاض الحرية السياسية بشعار العدالة الاجتماعية ، حاول الاديب العربي الجديد ـ بغض النظر مرة أخرى عن الاختلافات العقائدية ـ أن يجعل أدبه مرآة لمشاكل الشعب وآماله ، ولكن يجد نفسه في خاتمة المطاف في زقاق حين تازم الوضع ، وافترقت السبل ، وطرح سؤال الوجود واللاوجود يؤدي دورا هامشيا واقفا على حافة الطريق ، ان سمح له بحرية الوقوف ، شاعرا أن مصلحته الحيوية ورسالته متناقضة مع مصالح الطبقات السائدة . يقول « لوكاتش » : « ... ذلك لان الصعوبة الخاصة في وضع المثقفين ترجع اذن الى انهم لا يستطيعون ان يمثلوا مصلحتهم الحيوية الاولية بصورة فعلية الا حين يجابهون صراحة السياسة الرجعية للطبقات السائدة ، والا حين يساندون الجماهير في كل المسائل التي تتعارض فيها مصالح الطبقات السائدة مع مصالح جماهير الشعب الشغيل الفقيرة ، ويدافعون عن هذه المصالح ، ويضفون عليها طابعا عاما » .

ان وضع النخبة المثقفة في الوطن العربي ، وطبيعة رسالتها يكشفان تناقضا غريبا في أقطارنا ، فهي من جهة في حاجة ملحة الى ذوي النظرة المتكاملة الشمولية ، والكفاءات في التسيير ، وخاصة في اتخاذ القرارات في معركتها الكبرى ضد التخلف ، ومظاهر المجتمع الاقطاعي الراكد ، ومن جهة اخرى ينظر حكامها بكل حذر واحتراز الى نخبة البلاد ، واكثر الناس كفاءة وأعمقهم وعيا . ان نظرة سطحية سريعة لهذا الوضع تجعل المرء يستغرب ، ولكن التمعن عن كثب في طبيعة اكثر النظم الحاكمة يكشف عن الداء المستحكم الدفين .

وقد يقول عشاق المثالية ، وأصحاب الشعارات العاطفية الفضفاضة ، ولكن للادباء رسالة خاصة ، فهم من اكثر الفئات الاجتماعية وعيا ، ويجب عليهم ان يحملوا مشعل النضال . انني لا أنازع ان للمفكر العربي دورا خاصا في هذه المرحلة التاريخية المعينة التي نمر بها ، ولكننا نخطىء حين نركز على دوره ، ونتغافل عن رسالة الآخرين وفي مقدمتهم رجال السياسة ، فدورهم أخطر ، ومسؤوليتهم أثقل ، فهم المباشرون لشؤون الحكم ، وبيدهم اتخاذ القرارات الحاسمة المصيرية ، أما المفكر فانه يؤدي دورا هامشيا كما رأينا ، فكيف نطلب منه بعد هذا ان يخدم بأدبه المستقبل العربي وطنيا وقوميا ، وانسانيا . ولا أوافق من يذهب الى الرأي الى ان « الاديب عموما تعود على المعارضة ، على السلبية ازاء النظم ، ولم يوطد نفسه للبناء » ، فمن ترك له المجال ان يقوم بعملية البناء هذه ، ولا سيما المشاركة في وضع هندسة هذا البناء ، اما ان يدعى للقيام بدور ثانوي على خشبة مسرح هذه الاحداث الخطيرة التي يمر بها الوطن العربي فذلك في رأيي أبعد ما يكون عن الرسالة الحقيقية للمفكر العربي .

ونرى اتجاهات الادب العربي المعاصر تتأثر في هذا الوضع برؤية الاديب ، فمن له رؤية ثورية واضحة يواصل السير في دربه ، واعيا بتلك الهوة العميقة التي تفصله عن مصالح الفئات السائدة ، ورأينا فئة اخرى تخنع فتسير في الركب راكضة ، لاهثة ، وثالثة تلوذ بالصمت ، فتتقوقع داخل نفسها .

فمن أبرز مظاهر الاختلاف في الاتجاهات الادبية المعاصرة ـ اذن ـ تباين هذه الرؤية في صفوف الادباء ، وانعدامها لدى عدد كبير .

ان الواقع الراهن الذي نعيشه في الوطن العربي يحتم اختلاف الآراء والمعتقدات الايديولوجية ، والفنية ، وبالرغم من صعوبة التبويب وتذبذب الاتجاهات لدى الكثير من الادباء والمفكرين العرب فسنحاول ابراز أهم مميزاتها التي يحتويها تياران بارزان :

ـ تيار محافظ نجد ضمنه اكثر من اتجاه .

ـ وتيار تقدمي يضم ألوانا من الاتجاهات العقائدية ، نجد بينها الوطني التقدمي ، والعربي الثوري التقدمي ، والعربي الشوفيني الرجعي ، والماركسي الكلاسيكي المتحجر ، وتيار اليسار العربي الماركسي الجديد .

وبرز من هذا التيار التقدمي ، بغض النظر عن الانتساب لايديولوجية معينة ، مثقفون تمكنوا من تحويل مجرى التأثيرات المتروبولية وساهموا في تغذية الثقافة القومية ، وصقل معالم التراث ، ومظاهر الاصالة العربية ، وانعاش المعاني الانسانية .

ونجد لجميع هذه التيارات الايديولوجية ـ وهنا يلتقي الكتاب والشعراء مع بقية المواطنين الواعين في العالم العربي ـ انعكاسا في الانتاج الادبي العربي المعاصر ، وتأثيرا فيه ، وينبغي ان نقوم بايضاح ذلك في ندوة مختصة انطلاقا من النصوص نفسها .

وقد يرى البعض خطرا في ابراز هذا التباين في صفوف النخبة ، والتأكيد عليه . انني أعتقد ـ بالعكس ـ انه ليس أخطر على الانتاج الادبي ، بل على الفكر عامة ، أن نخفي خلافاتنا الادبية والفنية ، وما يكمن وراءها من فرقة عقائدية ، فالاختلاف في المنازع الفكرية ، والاتجاهات الايديولوجية ، ينتج عنه بطبيعة الحال تباين في النتائج ، والسمات والاتجاهات الادبية والفنية ، فلا مناص ـ اذن ـ من طرح قضية تعرية المفاهيم الفكرية والتحديد النظري ، فهي قضية ملحة جوهرية ، فلا بد من وضع العلامات المميزة لكل منها وتوضيح قسماتها ، ومضامينها وأشكالها الاجتماعية ، ومنطلقاتها الفكرية بغية تحديد الرؤية لما ستفرزه من نوازع ، ومواقف في حاضرنا الراهن . وهل نستطيع ان نتحدث عن تأثير الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة في المستقبل العربي دون ان نعرف منازعها ، ومنعرجاتها ، لان هذا التأثير سوف لا يكون موحدا ، وسوف يكون هو نفسه متأثرا بمعطيات معينة سيعيشها الوطن العربي ، أو بالتيارات الوافدة عليه ، فهو غير حصين ، منيع فكريا ، ما يزال تتجاذبه مختلف المذاهب ، وشتى المدارس . اننا نشعر بأن مناقشة خدمة الاتجاهات الادبية المعاصرة للمستقبل العربي تدخل في باب الحدس والتنجيم .

أن التأثيرات العقائدية في الاتجاهات الادبية ما تزال بارزة في قضية تكاد تصبح كلاسيكية ، قضية الادب الملتزم الهادف ، او الواقعية الاشتراكية في الادب والرومانسية ، وقد انعكست على الادب العربي المعاصر جميع المشاكل التي مرت بها مدرسة الواقعية الاشتراكية في الادب الاوروبي والاميركي دون ان يستطيع الاستفادة من تجربتها في أوروبا ، ولا سيما في أوروبا الشرقية ، واتقاء أخطائها هنالك ، فنجد أنصارها في الادب العربي المعاصر يتطرفون ، فيبالغون ، فهذا سلامة موسى يعارض تبني الدكتور طه حسين الدعوة الى ترجمة آثار شكسبير قائلا : « ان ترجمة شكسبير عمل رجعي ، لان شكسبير نفسه ليس اكثر من فنان رجعي «ملوكي» كان يكتب عن الملوك ، ولا يهتم الا بارضاء البلاط الملكي ، ونحن نريد فنا للشعب ، وأدبا للشعب » (رجاء نقاش ، أصوات غاضبة ، ص ٤٧) . ويدين ناقد من نقاد الواقعية الاشتراكية ، الدكتور عبد العظيم أنيس ، ابراهيم عبد القادر المازني دون النظر الى القيمة الانسانية في انتاجه الادبي ، ودون اعتبار الى ان مؤلفات المازني تعد وثيقة تاريخية وأدبية هامة في فهم المجتمع المصري خلال مرحلة تاريخية معينة ، واعتبرت هذه الواقعية المتطرفة المتحجرة أدبا بارعا في تصوير حياة فئات اجتماعية معينة في المجتمع المصري هو نجيب محفوظ فنانا سلبيا بحجة انه يكتب عن الطبقة المتوسطة ، ويهمل العمال والفلاحين ، وانه متشائم تنتهي رواياته بالهزائم ، واندحار أبطالها .

وظهر انتاج تحت شعار الواقعية الاشتراكية لا يقيم مؤلفوه لاصول الفن الادبي وقواعد الانتاج الفني عامة كبير وزن ، فأصبحنا نقرأ انتاجا شعريا وقصصيا ، ونقدا أدبيا مليئا بالشعارات ، يطغى عليه طابع خطابي يذكر بالخطب السياسية ، وحملات التوعية الجماهيرية . أما الجواز الوحيد الذي دخل به هذا الانتاج عالم الادب والفكر فهو حديثه عن العمال والفلاحين ، وادانته للبورجوازية ، فهو « أدب بروليتاري » وهذا يؤكد ما لمحنا اليه من ان انصار اتجاه الواقعية الاشتراكية في الادب العربي المعاصر لم يستفيدوا من الاخطاء الفظيعة التي وقعت فيها هذه المدرسة في ظل الجمود الستاليني ، وهكذا أصبح « أي شاعر هزيل الفن يكتب قصيدة عن الاقطاع أفضل ـ في ظل الواقعية الاولى ـ من أي شاعر موهوب أصيل يكتب قصيدة عن الحب أو الحزن » ، فهزل الاسلوب ، وأهملت قيمة اللغة الفنية، وكأن هنالك تناقضا بين المضمون الملتزم الثوري ، والصيغة الفنية الموهوبة . يقول الناقد ف. ف. كالفرتون في كتابه « تحرير الادب الاميركي » موضحا رأيه حول هذه الظاهرة التي أصيب بها الادب في أوروبا وأميركا قبل وصولها للادب العربي : « ان الناقد البروليتاري الثوري لا يهدف الى الغض من قيمة الصنعة الادبية وانما كل ما يذهب اليه هو ان الصنعة الادبية وحدها غير كافية ، وان الصنعة الادبية ينبغي أن تستخدم لخلق اشياء ذات معنى ثوري ... والمعاني الثورية المجردة من الصنعة الفنية تشكل عند الناقد الجذري وضعا فاشلا لا يقل فشلا عن وضع الصنعة الادبية المجردة من الهدف الثوري . واذا كان الادب البروليتاري قد فشل في كثير من وجوهه في اميركا فما ذلك لانه أدب بروباغندا ، بل لان خصائص الصنعة الفنية تنقصه ... فاذا ما أوتينا الصنعة الفنية فهدفنا يجب ان يكون ان نجعل من الفن خادما للانسان كوسيلة للكفاح لا ان نجعل من الانسان خادما للفن كوسيلة للهرب » .

ومن امراض الطفولة التي أصيبت بها الواقعية الاشتراكية في الادب العالمي ، وأصيب بها الادب العربي بالتبعية تنكرها للعواطف الانسانية باعتبارها من مظاهر الضعف البشري ، فكل فن يعالج هذه المظاهر هو فن ذاتي ، و « البطل الايجابي » هو المثال الوحيد الذي يجب الاعتناء به ، ويجب أن ينتصر في نهاية القصة ، أو المسرحية !

ويذكر هذا الاتجاه المتحجر بفئة الرافضين للتراث العربي رفضا مطلقا بحجة انه ذو محتوى رجعي .

واستغل أنصار الاتجاهات الرومانسية في الادب مغالاة الواقعية الاشتراكية ، وجمودها ، وتعلقها بشعارات شكلية فهاجموها صراحة ، وألصقوا بها تهما ، الواقعية الاشتراكية براء منها ، مثل اتهامها بأنها تدعو الى التفسير الاقتصادي للادب والفن ، او انها دعوة للمضامين الثورية والاجتماعية دون أي اعتبار للصنعة الفنية ، وللشكل ، وهكذا اتخذوا من نظرة ضيقة متحجرة للواقعية وتطبيقا جامدا لها فرصة للتنديد بها .

وهنالك من استعمل الواقعية الاشتراكية لمهاجمة التيار الاشتراكي في الوطن العربي .

ولا بد من الاعتراف هنا بأن أبرز النقاد العرب ذوي النزعة الماركسية أدانوا بأنفسهم ، منذ الستينات ، هذه النظرة الضيقة للواقعية ، فهذا الدكتور لويس عوض يعدد المدارس التالية :

- مدرسة الاشتراكية الثورية .
- مدرسة الواقعية الاشتراكية .
- مدرسة الادب الهادف .
- مدرسة الحتمية الاقتصادية او الجبر التاريخي .

ويرى فيها خطرا على الاشتراكية بمعناها الانساني الحقيقي ، ويقول : « ولكن المغالاة في هذه النظرة تتضمن من ناحية حكما بالاعدام على الكثرة المطلقة من تراث الفكر الانساني ، والفن الانساني ، والثقافة الانسانية لا لذنب الا لانها لم تعن مباشرة بترقية الجماهير وتحريرها ماديا وروحيا . كذلك المغالاة في هذه النظرة من شأنها ان تؤدي الى تجاهل حقيقة من أهم حقائق التاريخ ، ألا وهي ان كثيرا مما نعده اليوم فلسفات ، او غيبيات بورجوازية رجعية تعترض تقدم الجماهير كان في يوم من الايام قمة الثورية التحررية ، وقمة الجماهيرية التقدمية عندما كانت البورجوازية نفسها تتبنى آمال الجماهير ، وتتعذب بآلامها في صراعها الرهيب لتنسف معاقل الاقطاع . وهذا هو الشطط الذي ارتكبه نقاد اليسار الشيوعي ومفكروه حين حملوا حملة عمياء شاملة على كل فكر مجرد ، وكل اتجاه روحي ، أو مثالي بحجة انه يعبر عن عقلية البورجوازية الصغيرة » (الاشتراكية والادب » .

ونجد ناقدا بارزا من أنصار الواقعية الاشتراكية المتحررة ، ذات النزعة الانسانية هو الاستاذ محمود أمين العالم يقول : « ان كل قصيدة حب حقيقي ، هي قصيدة تقدمية . ان كل عمل فني يملأ قلب الانسان بالحرارة والبهجة هو عمل تقدمي . ان كل ابداع يضيف الى وجدان الناس مذاقا جديدا للحياة هو ابداع تقدمي » (الثقافة والثورة) . ولكن بالرغم من هذا النقد الذي قام به الادباءالاشتراكيون أنفسهم للنظرة الضيقة للواقعية الاشتراكية ، محاولين ازالة ما علق بها من شوائب وتهم ، فان التيار الذي تمثله هذه المدرسة قد انحسر، وأصيب بانتكاس في الاعوام الاخيرة ، فالرومانسية الادبية الجديدة تعيش حالة مدّ بعد ان تقلص ظلها في بداية الستينات ، وتمر الواقعية الاشتراكية بحالة جزر . ويخالف رجاء نقاش هذا الرأي مؤمنا بأن هنالك « واقعية ثانية » قد ولدت تختلف عن « الواقعية الاولى » ، « واقعية ثانية قد أذابت الجليد بينها وبين المدارس الفنية الاخرى وبالاخص المدرسة الرومانسية » !!

ويرى هذا الرأي حسين مروة ، ومحمود أمين العالم ، فيزيل حسين مروة في كتاب « دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي » « التناقض المزعوم بين الرومانسية والواقعية ، ولا يقف ... عند المناقشة النظرية لهذه القضية ، وانما يعرضها عرضا تطبيقيا ، فيختبرها في بعض المنجزات الادبية عند عدد كبير من الادباء من امثال يوسف ادريس ، ونجيب محفوظ ، وصلاح عبد الصبور ، وعبد المعطي حجازي ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، وصلاح جاهين وغيرهم » (الثقافة والثورة) .

فلا انسحار اذن ولا نكسة في رأي هؤلاء النقاد الثلاثة المعروفين

بانتمائهم للتيار التقدمي بين الاتجاهات العقائدية المختلفة الكامنة وراء المدارس الادبية في أدبنا العربي المعاصر .

انني أعتقد ان الاذابة الجليد بين « الواقعية الثانية » والرومانسية الجديدة محاولات لاخفاء النكسة الواضحة التي تعيشها الواقعية الاشتراكية في الحياة الأدبية والفنية في كثير من البلدان العربية ، وأرى ان هذه الازمة التي تمر بها مدرسة ادبية تقدمية من مدارس الادب العربي المعاصر متصلة وثيق الصلة بظاهرة الانتكاس التي خصلت للتيار الاشتراكي في كثير من أقطار العالم العربي خلال السنوات القليلة الماضية ، فقد أدت هذه الظاهرة الى بروز تيارات رجعية محافظة في السياسة والفكر ، كان لها انعكاسها على التيارات التقدمية في الانتاج الادبي والفني . وقد يعتقد البعض ان السبب يعود الى ان الادب الاشتراكي الهادف لم يثمر في عالم الفعل ، ولم تظهر نتائجه . ان هذا الاتجاه يدل على فهم سطحي لرسالة الادب الواقعي الاشتراكي ، فدوره ليس قلب الاوضاع وابراز النتائج الملموسة ، ان رسالته عميقة ، طويلة المدى تتمثل في نشر الوعي الحضاري الثوري في صفوف الجماهير . ونشر هذا النوع من الوعي العميق الهادف خطوة أساسية في طريق تقويض اركان المجتمع المتخلف الرازح تحت عبء مظاهر الاقطاع ، والقرون الوسطى ، وبناء مجتمع جديد ، مجتمع النهضة العربية الحديثة . فلا الادباء الرومانسيون ولا الواقعيون الاشتراكيون يستطيعون تغيير الواقع العربي الراهن ، فقد رأينا ان مصير هذا الواقع هو أبعد ما يكون عن أيدي الادباء والمفكرين ، ولا سيما عن أيدي الملتزمين منهم .

وينبغي ان ندرك في هذا الصدد ان انحسار الواقعية الاشتراكية لا يعني أبدا أن التيار الاشتراكي فقد مكانه في أدبنا العربي المعاصر ، فما يزال قويا يؤدي رسالته الخطيرة ، مرتبطا في ذلك بنمو وتطور الحركة الوطنية والاجتماعية نفسها ، وسيكون بخصائصه الانسانية ، ونظرته الشاملة ذا اثر واضح في تكييف المستقبل العربي .

واذا أراد الدارس ان يبرز أهم سمات الانتاج الادبي المعاصر ، بصرف النظر عن انتساب الاديب للتيار المحافظ ، او للتيار التقدمي ، فانه سيلمس الظواهر الآتية :

ـ انتاج عالم مضطرب في أكثر الاحيان يشعرك بتأزم الادب العربي المعاصر ، شأنه في ذلك شأن الفكر العربي ، وهذه التأزمية المستحكمة هي مأساة الانتاج الفكري العربي ، والواقع العربي كله .

ـ ضمور في الانتاج القيم ، وهزال في المحتوى ، وسذاجة في التفكير ، فالازمة التي يعانيها الادب العربي اليوم ليست بأزمة كمية، بل انها أزمة نوع وقيمة ، فقد أصبح كثير من الادباء ينتجون لغرض واحد حتى لا ينقطع انتاجهم ، وينساهم الناس بدون ان يكون عندهم ما يقولونه للقراء جديدا .

ويكفي ان نذكر توقف عدد من المجلات الثقافية ، والصعوبات التي تجدها مجلات مشهورة للمحافظة على مستواها ، وضمان دراسة قيمة واحدة في العدد على الاقل لندرك مشكلة الانتاج الادبي المعاصر ، ولا يمكن ان نعمم هذا الرأي على جميع الاقطار العربية ، فبعضها يعيش حركة نشر نشطة ، ويصدر مجلات قيمة محترمة ، لولاها لارتفعت أصوات الفزع في دنيا العرب الفكرية منذرة بخطر الفراغ الفكري .

ـ الثنائية في حياة الكثير من الادباء والمفكرين العرب ، فهم يعيشون حياة مستقلة عن انتاجهم . وللوعي السياسي والثقافي اهمية كبرى للقضاء على هذه الثنائية ، فلا بد من الاعتراف بأن انتاج كثير من الادباء يكشف عن عدم وعيهم .

ـ عدم توفر الروية التاريخية الصحيحة في كثير من الحالات . ان الانتاج الادبي والفني يحتاج الى وعي تاريخي وحضاري ، والى الشعور بالابعاد الزمنية .

ـ الانفصام المأساوي الحاد بين الوجود الاجتماعي والوجود الفردي .

ـ التشتت الفكري ، وتمسك كل واحد بمذهبه يرى انه وحده الطلسم السحري الذي به تشفى البشرية من آلامها .

ونفرق هنا بين الصراع الفكري والادبي ، وضرورة تحديد المضامين الايديولوجية في هذا الصراع وبين الدعوة الى وحدة فكرية ، وعقلية جديدة تكون حدا أدنى يتفق حوله المفكرون العرب ويعملون على نشر هذه العقلية الجديدة بين سكان البلدان العربية ، وخاصة سكان الريف ، فلا ننسى أن التسليم القدري ما يزال سائدا في الريف ، وان التواكلية ، والنظرة الانفعالية ، والجزئية ، ما يزال كل ذلك يشكل مظهرا اساسيا بارزا في حياة شعوبنا اليومية .

ـ ومن سمات أدبنا المعاصر ندرة النماذج البشرية الايجابية البناءة وطنيا ، وقوميا ، وانسانيا ، فهو يزخر بنماذج قاتمة ، مضطربة ، لا تملك ارادة البناء . فلا مناص لانتاجنا الفكري في هذه المرحلة الحاسمة من غربلة بذور الحياة لتنبت وتنمو . أن الثورة هي بناء أولا وبالذات ، وليست تقويضا كما يتخيلها أصحاب النظرة السطحية .

ـ طغيان العاطفة والبعد عن الدقة ، والحكم على الاشياء حكما مطلقا مبالغا فيه ، فليس نادرا ان تجد من يحكم على طبيعة غابة كاملة بشجرة واحدة . ومن جديد تطرح نفسها مسألة الوعي الحضاري الهادف حتى يتم استقطاب فكري يتفق على نظرة موحدة بدون الامل في ازالة الاختلافات الايديولوجية .

هذه أهم السمات البارزة للانتاج الادبي عامة ، اما اذا أمعنا النظر في أصناف هذا الانتاج ، فاننا نلاحظ ان درجات الازمة والتأزم تختلف من نوع لآخر ، فنلاحظ حركة مسرحية هادفة خصبة ، فقد ألف في السنوات الاخيرة عدد من المسرحيات الجديدة أعطت للمسرح الطليعي العربي معالمه الخاصة ، وقفزت به خطوة عملاقة الى الامام .

اننا نستطيع ان نتحدث عن رؤية مسرحية جديدة ، وبداية مرحلة تحول في تاريخ المسرح العربي المعاصر بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، اذ أخذ يساهم في حوار الامة العربية جمعاء ، ويطرح قضايا مصيرية خطيرة ، منطلقا في ذلك ، وفي لغة مسرحية فنية واضحة وضوح رؤية الكتاب المسرحيين الطليعيين أنفسهم ، من الجذور القومية للوطن العربي ، رابطا اياها بمأساة الكيان العربي اليوم مضيفا اليها محتوى ثوريا انسانيا .

ويكاد يكون المسرح العربي الجديد النوع الوحيد من الانتاج المعاصر الذي نجح في استخدام التاريخ ، وارتبط ببراعة تقنية ، وابداع في المضمون والشكل بالجوانب التقدمية المشرقة ، والمضامين الانسانية في التراث العربي ، كما ارتبط بالتراث الشعبي ، والواقع الاجتماعي ، ونذكر مثالا سريعا لهذين اللونين من الارتباط بالتراث التاريخي والشعبي « ثورة صاحب الحمار » و « الزنج » لعز الدين المدني ، ومسرحية « الزير سالم » لألفريد فرج ، و « ليالي الحصاد » لمحمود دياب .

وهذا التحول الذي عاشه المسرح العربي المعاصر هو حصيلة تطور دام اكثر من نصف قرن ضرب الفكر التقليدي عليه حصارا مدة طويلة استطاع أن يفكه حين نجح في تقديم القضية الاجتماعية بمحتواها الثوري بعد ان بلغ المسرح الوطني طريقا مسدودا غداة الاستقلال السياسي ، وخيبة أمل الجماهير التي حلمت طويلا بأن هذا الاستقلال سيحل القضية الاجتماعية .

ان صفة الطليعية التي نطلقها على المسرح العربي الجديد مرتبطة :

اولا ـ بتلك الثنائية التي نلمسها دائما في كثير من المجتمعات، ولا سيما المجتمعات النامية من طلائع متشوقة للمستقبل المنشود ،

حاملة لواء النضال من أجل تحقيقـــه ، وبين جماهير كثيرة لا تزال تعيش في الماضي ، أسيرة المسلمات الغيبيـــة ، والنظرة العاطفية الجزئية ، والتواكلية ، والروح السلفية المتحجرة . فلا بد ـ اذن ـ من حصول الصدمة والهزة العنيفـــة ، وتلك هي السمة الاساسية لمحتوى المسرحيات الطليعية التي أنتجها الادباء العرب الثوريون ، فهم لم يقصروا اهتمامهم في طرحهم لقضيـــة المصير فوق خشبة المسرح الطليعي على الحرب ضد الامبريالية ، والهزيمة العسكرية ، بـــل تجاوزوا ذلك الى نقد الذات ، والسلبيات ، ومظاهر العقلية المتخلفة في شتى الميادين في الحياة الاجتماعية ، وفي السلوك الاخلاقي ، وفي النظرة الى الحياة ، وفي النظم التربوية القائمة على الحفظ ، وحشو الادمغة ، وفي نظم الحكم ، وفن تسيير شؤون الكافة .

ثانيا ـ بالطليعة الفكرية للمجتمع العربي بكل ما يزخر به مـن صراعات سياسية واجتماعية وثقافية .

ومثل الانتاج المسرحي فان القصة العربية المعاصرة ، ولا سيما القصة القصيرة ، استطاعت ان تفلت نسبيـــا من « تأزمية » الادب العربي المعاصر ، واستطاعت في كثير من البلدان العربية ان تسلك منعرجا جديدا بعد التعبير العاطفي عن مأساة الانسان العربي اثـــر الهزيمة ، فتنظر الى مشاكل الواقع العربي نظرة واقعيـــة تقدمية ، وتخلص كثير من كتاب الرواية والقصة التقدميين من امراض الطفولة للواقعية الاشتراكية ، ونظرية « البطل الايجابي » التي رزح تحت عبئها الانتاج الروائي والقصصي اليساري سنوات طويلة في الادب الاوروبي والاميركي ، تلك النظرية التي ينقـــدها المفكر الاشتراكي الفرنسي « لوفافر » قائلا :

« تدعو الى التعبير عن الجديد وحده ، وتمجيد في وجه القديم تحت زعم الواقعية الاشتراكية ، فجاءت ثمرة هذه النظرية محصـورة في الشكليات ، وجاء ابداؤها مقتصرا على تمجيـــد الاصطلاحات . ولا عجب في ذلك ، فالبطل الايجابي خال من كل تناقض بحيث يبدو خاليا من كل انسانية ولا تربطه بحياتنا اليومية أي صلة » (أصـوات غاضبة ، ص ٥٠) .

ومما نلاحظه في اتجاهات محتـــوى قسم من الانتـــاج الروائي والقصصي العربي ، وخاصة في بعض البلدان العربية ، وقوعه فـي فخ البورجوازية بتمجيده الماضي دون ربطه بالحاضر ، أعني بالخصوص ماضي المرحلة التحريرية ، والتغني بأبطالها المزيفين دون الكشف عن الابطال الحقيقيين ، أبطال الامس ، وابطال اليوم ، أولئك المعذبين في الارض ، دعامة الثورة التحريرية ، فهو محتوى وطني لا ريب في ذلك ، يعمق الشعور القومي لدى الجماهير ، وهو شعور ما نزال في حاجة ملحة اليه لمواجهة التحديات بشتى اصنافها السياسيـــة ، والاقتصادية ، والثقافية ، ولكن نقطة الضعف في هذا الاتجاه لدى عدد من القصاصين هو فصل ماضي الكفاح التحرري عن مأساة الحاضر، والتنكر اليوم لشعارات الامس القريب ، فينقلب التغني بذلك الماضي تسلية والهاء ، فهو انتاج تعوزه النظرة الشمولية ، والمحتوى الثوري الانساني .

وهذا هو النوع من الانتاج القصصي في الادب العربي المعاصر الذي ندد به الكاتب الجزائري مصطفى الاشرف قائلا :

« وان الطبقة البورجوازية المتاجرة المستغلة اذ تعرض عـلى المثقفين والعمال التغني بالبطولات ترمي من قصد ، أو تكاد ، الـى تمكينهم من عملية يجدون فيها تسلية او تحريرا لكبتهم لا طائل وراءه ، وتدعوهم الى تمجيد الماضي القريب ، ذلك الماضي الذي لم تسـاهم تلك البورجوازية في تكوينه ، ولو كانت آنذاك قوية عزيزة ، والـى تمسك الشعب به تمسك المدمن على شرب الافيون .

فهذه البورجوازية التي هي اكثر الطبقات خمولا وركودا، وأسرعها الى الانهزام تنظر بعين الرضا الى هذا التعلق بالبطولة الذي يسمح لها بخدمة اغراضها الدنيئة ، وبتدعيم ازدهار لا تستحقه .

يجب ان لا يقع القصاصون في الفخ فيشاركون في تنفيذ تلك المناورة . واذا كان لا بد ان يذكروا الملحمة الجماعية الشعبية التـي امتازت بها الحرب التحريرية الوطنية ، والتي وجدت حقا ، فـلا يغفلوا خاصة عن ذكر الدور المخجل الذي لعبته الطبقة البورجوازيـة الخائنة الجشعة وليقولوا كيف وقع القضاء منذ بداية الاستقلال على الثورة الاجتماعية التي مات في سبيلها مليون من الفلاحين والعمـال وصغار الموظفين والمثقفيـن من قبل المحتكرين والانتهازيين وعملاء نظام استعماري راحل لم تصح توبتهم » (ملتقى القصـــة بين المغاربة ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤) .

ونستطيع ان نقول بصفة عامة ان الاتجاه التقدمي ذا الطابـع الانساني يمثل الميزة الاساسية للقصة العربية المعاصرة ، فمن النادر ان نجد قصة كتب لها النجاح قد تأثر كاتبها بالاتجاه التقليـــدي للرومانسية مثلا ، ولكن رسالة القصة في خدمـــة المستقبل العربي محدودة ـ في نظرنا ـ بالنسبة للمسرح الطليعي العربي ، اذا استطاع ان يبرز للجمهور فوق خشبة المسرح ، وخاصة على الشاشة الصغيرة، فقد بدأت توضع في سبيله العراقيل الجمة نتيجة الردة الفكرية التي يمر بها كثير من البلدان العربية .

ولعل حركة الشعر العربي الحديث هي أكثر ضروب الانتاج العربي المعاصر الذي تبرز فيه سمة التأزم ، وتلوح عليه علائم أزمة حـادة ، والانتاج الشعري هو الذي يتضح فيه بجلاء ارتباط الاتجاه الادبـي بالاتجاه العقائدي ، فالرؤية الشعرية متينة الاتصال بالرؤية الكونية. ومن هنا تنطلق قضايا الشعر العربي المعاصر ، وتكمن بعض اسبـاب أزمتـــه .

فبعد ان تحدث شعراء المرحلة الاقطاعية غداة تباشير يقظة العالم العربي الاسلامي عن أمة اسلامية ، وعن شرق وغرب ، دون ان ينتبـه أكثرهم الى ان الصراع الحقيقي الذي دخلت فيه الامة العربية ، جاءت مرحلة البورجوازية الوطنية الاولى ، فتحدث الشعراء بغموض عـن العروبة ، والوطن ، والاستقلال الضبابي ، ثم تحـدثوا عن الحرية والعدالة والمساواة ، والتغني بماضي الاجـداد المجيد ، دون الفرز بين الغث والسمين في تراث هذا الماضي ، فساهموا في طمس الكثير من معالم النضال الحقيقي ضد القوى الخارجية والداخلية . ثم تأتي المرحلة الحاسمة في حركة التحرر الوطني العربية ، وتشارك الجماهير في هذه المعركة ، ويصاب العالم العربي خلال تلك المرحلة بهزيمـة ١٩٤٨ ، فيؤدي كل ذلك الى ميلاد التيار الشعري الجديد الذي طلع على القارىء بالقصيدة الحديثة في بداية الخمسينات ، فهي لم تولد صدفة ، أو لاعتبارات فنية بحتة ، بل استجابة لضرورات اجتماعية وسياسية وفنيـــة أيضا تتمثل في ضرورة التزام الشاعر بالرؤيـة التركيبية ، والنظرة الموضوعية ، فتتضح لدى فئة من ممثلي التيار الشعري الجديد الرؤية القومية والتاريخية ، والنظرة الشموليـة في القصيدة .

وهنا نلاحظ بروز اتجاهات في الحركة الشعرية المعاصرة تكمن وراءها اختلافات عقائدية . وتبرز أسماء لامعة من الشعراء المجددين الملتزمين في مطلع الخمسينات ، فتكسب الاتجاه الثـوري التقدمي أهمية كبرى ، وتمكنه عن طريق الموضوعات التي تبنتها من شعبيـة واسعة في المجتمع العربي ، فوضع عبد الوهاب البياتي ، وقد كان « بحق رائد حركة الشعر الحديث ، ورأس الرمح فيها » ، أسلوب القصيدة الحديثة في خدمة قضايا الانسان العربي ، وخدمة الثورة الاجتماعية ، ونضال الكادحين في الوطن العربي ، مضفيا عليه معاني انسانية خالدة ، رابطا اياه بنضـال الانسان ، حيثما كان ، ضد الاستغلال ، والقهر ، والكبت ، معمقا الجذور القومية باستعمـاله للجوانب المضيئة التقدمية في التراث العربي . ويؤدي رواد هـذا

التيار داخل حركة الشعر العربي المعاصر ـ نجد الى جانب البياتي : السياب ، والفيتوري ، وأدونيس ، ثم شعراء المقاومة ـ دورا ايجابيا في تحديد رسالة الشعر الجديد ، وخدمتها لقضايا الانسان العربي .

اننا لا نوافق الاستاذ أنطون مقدسي حين يغالي في حديثه عن الشعر العربي اليوم قائلا : « شعرنا اليوم المقلد منه والمجدد يعيش على فتات ذلك القديم يعيده زخرفا لفظيا أو يستدعيه ظلا ، يشوه أكثر مما يبدع ، فيخفق في الحالتين ، تعوزه الشفافية ، يعوزه البيان : جسم لم تستقر فيه روح فتبعثه كائنا سويا » (المعرفة ، اكتوبر ١٩٧١ ، ص ٣٣) .

فما يزال قسم وافر من الانتاج الشعري المعاصر يؤدي رسالته الوطنية ، والقومية ، والانسانية ، ويقف في طليعة معركة المصير العربي دون اهمال للاسلوب الشعري الموهوب ، او ضمور في المحتوى الثوري الانساني ، ولكن هذا التيار الذي واصل رواده حمل المشعل لم ينقذ حركة الشعر الحديث من الازمة .

ولعل السبب العميق للازمة يعود الى انعدام الرؤية الحضارية الواضحة لدى الكثير من الشعراء وما ينشأ عنه من فقدان القصيدة المنظرة الشمولية المكثفة للوجود المشاهد الذي تعبر عنه ، وتطرح قضاياه ، فتأتي كثير من الاتجاهات الشعرية عائمة غامضة منبتة عن واقع المواطن العربي الاليم .

فالقضية الاولى ـ اذن ـ تتمثل في تحديد رسالة الشاعر ، فالشاعر يجب ان يكون ـ كما يقول الفيتوري ـ « شاعرا بحق ، وليس مجرد مهندس معماري ، أو صابغ أحذية ، او مزخرف واجهات » ليستطيع اداء رسالته الخطيرة في الوطن العربي . تلك الرسالة التي يحددها البياتي بطريقة أخرى قائلا : « فانا أومن بأن على الشاعر ان يوحد بين تجربته الذاتية وتجربته الجماعية ، أي انني أرى ان الشاعر هو صوت الجماعة في كل عصر ... وهو حتى في خاصيته يعبر عن موجود الجماعة كلها ، وذلك لشمول تجربته وعدم محدوديتها . وسر نجاح الشاعر وخلوده يقوم في قدرته على التوحيد بين تجربته الذاتية وتجربة المجموع » .

وينذر صراحة بالمدرسة الرومانسية في الشعر العربي المعاصر متهما اياها بالعجز عن اداء رسالة الشعر الانساني الهادف ، ويؤمن بأن فرار القصيدة الرومانسية من العنصر الدرامي هو فرار من الواقع الوجودي ، فيقول : « أما العنصر الدرامي في القصيدة فهو أمر طبيعي ، وذلك لان الوجود نفسه هو دراما كبيرة ، وليس هو برؤيا رومانسية باهتة . ولذلك أعتقد ان القصيدة الرومانسية هي تزييف فج للواقع الذي نعيشه ، وتعبير مسطح عن الجوانب الهامشية فيه » (الاقلام ، العدد ١١ ، ١٩٧٢ ، ص ٨٣) ، .

ان كثيرا من شعراء الادب العربي اليوم عاجزون عن فهم رسالة الشعر هذا الفهم ، وتبنيهم هذا التيار عامة ، بصرف النظر عن منعرجاته الايديولوجية ، وهذا النقص في ثقافة كثير من شعراء اليوم، وفي رؤيتهم يمثل مظهرا آخر لازمة الشعر العربي ، فمن الاوليات المعلومة ان شعر أمة ما هو مقياس انسانيتها ، ولكن كيف يمكن خدمة هذه الانسانية ، والتعبير عنها بدون رؤية كونية شاملة ؟

وأدى فقدان هذه الرؤية الى التذبذب في مواقف الكثير من الشعراء ، فيصبح بعضهم تقدميا بين عشية وضحاها حين تنفجر بعض الثورات في العالم العربي والبعض منها لا يتجاوز في منطق الموضوعية التاريخية ان يكون انقلابا يطلع علينا بأسماء جديدة ، وبلاغات مرقمة مجاراة للقيم الجديدة ، أو خوفا من اتهامهم بالرجعية والتخلف .

ومن أبرز علائم أزمة الشعر العربي الحديث الانفصال الذي حدث بينه وبين الجمهور ، ولا أوافق من يعلل ذلك بثقافة القارىء ، وانتشار الامية في الوطن العربي ، وانما الاسباب اكثر تشعبا وعمقا من هذا ، فبعضها يرجع الى تأزم الوضع العربي العام ، واعراض القارىء عن الشعر ، لانه أصبح يحشر الشعراء في زمرة المناجرين بالكلام ، المرددين للخطب الرنانة ، والشعارات اللفظية الجوفاء ، « ان الجماهير الكادحة قد سمعت المزيد من القصائد الرنانة الواعدة دون ان تجني غير المزيد من الاستلاب » .

أما الشعر الرومانسي فيعرض عنه الانسان العربي اليوم لانه بعيد عن المأساة التي يعانيها يوميا ، ومن يقبل عليه ، ويقرأه فمن أجل التسلية ، والهروب من مرارة الواقع ، فهو شعر يسلي بجماله وصوره ، ولكنه غالبا بعيد عن المأساة بأبعادها القومية والانسانية .

وتمس أزمة الواقع العربي شعر المقاومة نفسه فتؤثر المواقف السياسية تجاه حركة المقاومة في موجة التعاطف مع هذا الشعر ، فتنحسر ، ويشرف شعر الارض المحتلة على باب مسدود ، كما يعترف بذلك محمود درويش .

ان أزمة الشعر متصلة ـ كما لمحنا ـ بقضايا الواقع العربي من جهة ، وبالاتجاهات الادبية التي تمثلها مختلف الفئات ، والمتأثرة بدورها بالفرقة الايديولوجية بين الشعراء من جهة اخرى ، فنجد اليوم تيارا طليعيا ، وآخر عصريا ، وشكليا ، وفئة نرجسية ، وثانية تمردية ، وثالثة رغم شعورها بهزيمة جيلها وفشله لا تيأس ، ولا تفقد الامل الذي عجزت الاجيال المهزومة عن تحقيقه ، فتتجه الى المستقبل ، الى عالم الاطفال ، فيقول سليمان العيسى :

آمنت بالآتين بالاطفال
بهازمي أسطورة المحال

حالما بيقظة جديدة تختلف عن يقظة العالم العربي الحالية ، رغم حصيلتها التاريخية خلال قرن كامل :

لا بد ان يذوب في الهجير ما جمد
لا بد ان يستيقظ القبر الذي رقد

انه من الصعب حقا ان نتصور اليوم تأثير الاتجاهات الادبية المعاصرة في المستقبل العربي ، فقد رأينا كثيرا من الاتجاهات غائمة غامضة ، فيها كثير من التناقضات والزيف ، ورأينا المستقبل العربي تغشيه غيوم كثيفة ، ولكن الهدف الواضح الذي يجب على الادباء والمفكرين العرب ان يسعوا جاهدين لتحقيقه هو خلق أدب جديد يعبر عن واقع الانسان العربي الجديد وآماله . ان الوطن العربي في حاجة ملحة الى ثورة ثقافية شاملة تعيد النظر في كثير من القضايا السياسية ، والقضايا الاجتماعية والفكرية الراهنة ، وتحرر المجتمع العربي من قيوده ، وتزيل العقبات التي تقف في طريق تقدمه وانطلاقه .

ولكن هذا الانسان العربي الجديد ، وليد الماضي والحاضر ، لا يستطيع ان يحدد الرؤية للمستقبل ، ويوضح معالمه ، ليستطيع الادب والفن ان يحمل مشعل هذا المستقبل العربي المنشود ، الا اذا نجح في حل أزمة الحاضر ، وحل مشكلة المشاكل فيه : نظم الحكم ، والاهتداء الى أقوم السبل ، وأنجع الطرق لبعث حماس الجماهير العربية للمحتوى الوطني والقومي والانساني في آثار الادب العربي المعاصر .

تونس — الحبيب الجنحاني